«دي دي»..
٣٠ دقيقة في حضرة «ملك الراي»

(١)

«إنت فاهم يا ابني اللي بتسمعه ده»؟

يعيدني السؤال لعام ١٩٩٢، عرف المصريون وقتها أغنية اسمها «دي دي» لمطرب جزائري حقق شهرة واسعة في فرنسا اسمه «الشاب خالد»، كنا نتعجب من كلمة «شاب» التي تسبق الاسم، وبمرور الوقت اكتشفنا أن مطربي هذا النوع من الأغاني يطلقون عليهم في بلادهم لقب «شاب»، وهو مسمى ظهر في بداية الثمانينيات، حيث أطلق التلفزيون الجزائري مسابقة «ألحان وشباب» للمغنين الشباب في التلفزيون الجزائري، وأطلق على الفائز وقتها اسم «شاب».

«دي دي» كانت أول طرقة للموسيقى المختلفة على أبواب ذوق طفل يحبو نحو المراهقة، أنا من الجيل الذي غادر طفولته على متن أصوات تصدّرها عمرو دياب، محمد فؤاد، مصطفى قمر، وبالطبع حميد الشاعري، ولكن شيئًا فشيئًا كان البحث عن شيء مختلف ضرورة ملحّة.

بعد «دي دي» عرفنا أن هذه الموسيقى القادمة من الجزائر بلهجة غير مفهومة اسمها «الراي»، مصطلح «راي» مأخوذ من كلمة «رأي»، وهو مسمى يعكس طبيعة ما تقوله أغنياته، فالكلمات تخلت قدر الإمكان عن الرومانسية، أو بمعنى أدق

استبدلت بالحُب الحنين، وضربت بعنف على أوتار الاغتراب كشعور مثير للشجن.

يعرف «الراي» بأنه حركة فنية نشأت في مدينة سيدي بلعباس في الجزائر، وازدهرت في وهران، بدأت على يد أمير الشعراء الجزائريين عبدالقادر الخالدي كنوع من المدح الديني، حتى تحولت إلى صرخة سياسية خلال فترة الاستعمار الفرنسي، هناك تماس دائم بين الدين والسياسة والفن، شُحنة الصوفية المتغلغلة في المدح الديني كانت أوسع وأرحب لتحتضن فيما بعد محاولات التنفيس السياسي، ومنها إلى ما هو أبعد من قضايا وموضوعات اجتماعية، كل شيء يأتي يندرج تحت تلك القائمة مسموح طالما بدأت التجربة بمناطحة أعلى سقف متاح للتعبير، وهو رفض الاستعمار الأجنبي.

العجيب أن كل ذلك ارتبط بالرقص، «الراي» وُلِد من رحم رقصة العلاوي في غرب الجزائر، وعرفه المغرب العربي من صوت مطربين مثل الشاب دريسي العباسي وأحمد رزقي، ثم جاء بوطيبة الصغير ليحوّل «الراي» لغناء شعبي تصاحبه إيقاعات راقصة.

(٢)

هل توقّف «الراي» عند تلك المحطة؟ كل ما سبق لم يكن سقف «الراي» الذي قرر النبش في أوجاع المجتمع، حتى سمي بـ«الفن الممنوع»، حظرت الإذاعة الجزائرية بث أغانيه؛ لتداولها في الملاهي الليلية والأفراح، لم يكن لائقًا أن ترقص على الأغنية في الكباريه ليلًا بينما تستمع لها صباحًا عبر الأثير، طاردت السلطات مطربي «الراي» بتهمة تدمير

الـذوق العـام، بينـما اتسـعت رقعتـه في ربـوع البـلاد مـن ريفهـا إلى حضرهـا، وهنـا فهمـت السـلطة مبكـرًا أن «الـراي» سـيصبح أهـم حـزب فنـي معـارض قـد يقلـق سريرتهـا، فأجهضـت كل محـاولات الاعـتراف الرسـمي بـه.

كانـت مفارقـة أن المنتـج الموسـيقي الـذي قـدّم للعـالم صـورة جزائـر مـا بعـد الاسـتعمار واجـه تلـك الحـرب الشرسـة مـن الدولـة، فاعتـبره أبنـاء الطبقـات الارسـتقراطية ابتـذالًا، ورفضـت العائـلات العريقـة سـماع أبنائهـا لهـذا اللـون المرتبـط بالطبقـات الدنيـا.

مـرّ «الـراي» بمرحلـة فتـور في السـبعينيات حتـى ظهـر مـن أُطلـق عليهـم فيـما بعـد «ملـوك الـراي» خـلال حقبـة الثمانينيـات، وهـي نفـس المرحلـة التـي بـدأ النظـام الحاكـم يسـتوعب معهـا فكـرة هـذا الفـن، بـل ويفتـح أمـام مطربيـه البـاب في الإذاعـات والقنـوات التلفزيونيـة، كانـت أصواتًـا غريبـة تمامًـا عـلى مقاييـس الأغنيـة الشرقيـة، مثـل «الشـاب خالـد» و«رشـيد طـه»، وتلاهمـا «الشـاب مامـي»، هـذا الثلاثـي تحديـدًا كان أكثـر جـرأة وإصرارًا عـلى النجـاح، مقارنـة بأسـماء أخـرى رغـم شـعبيتها الجارفـة، إلا أنهـا لم تخـرج عـن نطـاق حـدود الجزائـر.

الهجـرة إلى فرنسـا كانـت الطريـق للشـهرة، وهنـاك التقـط المنتجـون الفكـرة، وصدّروهـا لنـا مـرة أخـرى بصيغـة مُطَـوّرة، وصـل لنـا «الـراي» عـبر برنامـج «بانوراما فرنسـية»، شـباب جيـل التسـعينيات ارتبطـوا بـ«ملـوك الـراي» كنـوع مـن التمـرد عـلى الأغنيـة المصريـة التقليديـة، سـمعنا «دي دي» و«عايشـة» و«يـا رايـح» و«وهـران» وردّدناهـا دون أن نفهـم كل مـا يـرد بـين السـطور، وتحـوّل الارتبـاط لـذوق موسـيقي يرافقـك أينـما كنـت.

بعد عشرين عامًا على صدور «دي دي»، وتحديدًا في صيف ٢٠١٢ التقيت بـ«الشاب خالد»، كان قد نزل للتو من على مسرح عملاق في قلب العاصمة المغربية الرباط، حضر ليلتها أكثر من مائتي ألف متفرج ضمن فعاليات مهرجان موازين، بدا «خالد» منتشيًا كمن غرق في برميل فودكا روسية، ظلّ يدندن ويغني ويضحك، تحدثنا في أشياء كثيرة، كان مشتاقًا للغناء في مصر بأي شكل، قال لي إن مصر بلد يستحق مصيرًا أفضل مما يعيشه الآن تحت حكم الإسلاميين، دلل على مخاوفه من صعودهم على سطح الساحة السياسية، بما فعلوه في الجزائر لسنوات طويلة: «هؤلاء لا يعرفون الحياة يا صديقي، لا يتذوقون الموسيقى، يخافون من البهجة، وأنا لديّ أغنية جديدة تدعو للفرحة والرقص والسعادة».

لم أعرف أنه يقصد أغنيته الشهيرة «سيلافي» التي طرحها بعد عدة أشهر، وأعادته للأضواء بقوة، كان لا بد أن أنهي حديثنا سريعًا وسط تململ من مدير أعماله، سألته: أبي لا يفهم كلمات أغانيك، ويندهش أنني أسمعها منذ ٢٠عامًا، حاول أن تحلّ تلك المشكلة؟!

ردَّ بعفوية: من لم يرقص على «دي دي» وأخواتها لن يفهم ما نقوله.

Di di

غناء: الشاب خالد

كلمات: فولكلور جزائري

music producer: bar don was

إنتاج: virgin music